(٣٧) يوسف بن الحسين (١)

ذكر الشيخ يوسف بن الحسين عليه الرحمة:

كان رحمه الله من جملة مشايخ المُؤمنين، والأولياء المتقدّمين، عالمًا بأنواع العلومِ الظاهرة والباطنة، وكان شيخَ الريِّ والجبال(٢) في وقته، مؤدّبًا أديبًا ذا ثباتٍ في إسقاط التصنُّع.

أدركَ جمعًا كثيرًا من المشايخ، وصحب ذ النون المصري، وأبا تراب النَّخشبي رحمهم الله تعالى، رفيقًا لأبي سعيد الخراز.

ورزقه الله تعالى عُمرًا طويلاً، وما زال مُجدًّا في العلم، وله في الملامةِ(٣) قدمٌ راسخة، وهمَّةٌ عليةٌ عالية.

---

(١) وقيل: محمد بن يوسف الرازي، طبقات الصوفية ١٨٥، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٨، تاريخ بغداد ١٤/ ٣١٤، الرسالة التشيرية ٨٣، طبقات الحنابلة ١/ ٤١٨، مناقب الأبرار ٤٥٦، المنتظم ٦/ ١٤١، صفة الصفوة ٤/ ١٠٢، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ١٨٠، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ٧١، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٤٨، العبر ٢/ ١٢٨، دول الإسلام ١/ ١٨٥، روض الرياحين ٣٠١ (حكاية ٢٤٥)، البداية والنهاية١١/ ١٢٦، طبقات الأولياء ٣٧٩، النجوم الزاهرة ٣/ ١٩١، نفحات الأنس ١٤٧، ٢٦٥، طبقات الشعراني ١/ ٩٠، الكواكب الدرية ٢/ ١٦٤، شذرات الذهب ٢/ ٢٤٥..

(٢) الجبال: اسم علم للبلاد التي عرفت بالعراق، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرَّي، وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة. معجم البلدان.

(٣) الملامتية أو الملامية: فرقة صوفية، اشتقت اسمها من الملامة التي هي بخع النفس وتأنيبها، وقد اختص بهذا الاسم أولاً أهل خراسان.

وليس ببعيد أن يكون اسم الملامتية متصلاً ببعض الآيات ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ و﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾.

والملامتي لا يرى لنفسه حظًا على الإطلاق، ولا يطمئن إليها في عقيدة أو عمل ظنًّا منه=

وكان ابتداءُ حاله أنَّ بنتَ أميرِ العرب عشقته، إذ كان صاحبَ صورةٍ جميلةٍ، وهيئةٍ حسنة، وشكلٍ مليح، فانتهزت البنتُ فرصةً، وألقتْ نفسَها إليه، فرجفَ وهربَ من تلك القبيلة في تلك الليلة، ومضى إلى قبيلةٍ أُخرى، وما نامَ؛ بل وضعَ رأسَهُ على ركبتيه، فنعسَ ورأى في المنام مَوضعًا لم يرَ مثلَه، وهناك جماعةٌ مستورة، وشخصٌ جالسٌ على سريرٍ كسُلطان، فتمنّى أن يعلمَ مَنْ هؤلاء، ومَنْ هذا الجالسُ على السرير، فقال: من أنتم؟ قالوا: جماعةٌ من الملائكة، والذي على السرير هو يوسفُ النبيُّ عليه السلام، جاءَ إلى زيارة يوسف بن الحسين. قال يوسف رحمه الله: فبكيتُ، وقلتُ: من أنا ليزورني يوسفُ النبيُّ عليه السلام! كنتُ مُتفكّرًا في هذا، إذ نزلَ يوسفُ النبيُّ عليه السلام من السرير، وعانقني، وقال: لما ألقتْ بنتُ ملكِ العرب نفسَها إليك، ووقعتْ بين يديك مع جمالها وحُسنها وكَمالها، وأنت ما نظرتَ إليها، وفوَّضْتَ أمرَكَ إلى الله تعالى، والتجأتَ إليه، فعرضَكَ اللهُ عليَّ وعلى جميع الملائكة، وقال لي: يا يوسف، أنتَ قصدتَ زُليخا، وهممتَ بها لولا أن رأيتَ

= أن النفس شرٌّ محض، ولا يصدر عنها إلا ما وافق طبعها من رياء ورعونة، ولذلك وقف منها دائمًا موقف الاتهام والمخالفة، وهذا هو المراد بلوم النفس.

وكذلك يرى الملامتي أن معاملته مع الله سرٌّ بينه وبين ربه، لا يصح أن يطلع عليه غيره، فهو حريص على كتمان السرّ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلته به، لذا تعمّدوا فعل ما يجب عليهم من الخلق السخط والازدراء، وهذا هو لوم الناس إياهم.

وعدم الاستغراق في الله وعدم الغيبة عن النفس والعالم المحيط بها كان الحائل المنيع الذي سدَّ على الملامتية باب القول بوحدة الوجود، أو بالحلول والاتحاد، وما شاكل هذه الأقوال التي شاعت على ألسنة الصوفية الذين تكلموا في الفناء.

ولعل أشمل تعريف للملامتية ما قاله أبو حفص النيسابوري: أهل الملامة قوم قاموا مع الحقّ تعالى على حفظ أوقاتهم، ومراعاة أسرارهم، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم. انظر كتاب الملامتية وأهل الفتوة. تأليف د. أبو العلا عفيفي.

بُرهانَ ربِّك[1]، وهذا يوسف الذي ما التفتَ إلى بنتِ ملك العربِ، وفرَّ منها. ثم أرسلني مع جماعةٍ من الملائكة لأجلِ زيارتك.

نقل أنه توجَّه إلى ذي النون، وهو كان في مصرَ ليتعلَّمَ منه االاسمَ الأعظم، فوصل إلى مصرَ، ودخلَ مسجد ذي النون، وسلَّم عليه، وانزوى في زاويةٍ، ثم بعد سنةٍ سأل ذو النون وقال: من أين؟ قال: من مدينة الرَّيِّ. ثم بعد سنةٍ أُخرى قال: لِمَ جاء إلينا؟ قال: زيارةً. وكذا كان مُقيمًا في مكانه، حتى قال ذو النون بعد سنةٍ أخرى: هل لك حاجةٌ؟ قال: نعم، أرجو أن تُعلّمني اسمَ الله الأعظم. ثم بعد سنةٍ أُخرى أعطاه ذو النون علبةً مُغطَّاةً، فيها شيءٌ يتحرّك، وأمره أن يذهبَ بها إلى شيخٍ آخرَ في مصرَ، وقال: ما يقولُ لك الشيخُ فاحفظْهُ. فأخذ يوسفُ العلبة، وذهب بها، ثم وقع في باله أن يفتحَ العلبةَ، ويطَّلعَ على ما فيها، فلمَّا فتحَها، فإذا فيها فأرةٌ، نطَّتْ منها وغابت، فتحيَّرَ يوسفُ في ذلك، وبقي متردِّدًا بين أن يرجعَ أو يَمضي إلى الشيخ المبعوثِ إليه، فجمع عزمَه على أن مضى، فلمّا رآه ذلك الشيخُ، ومعه العلبةُ الخاليةُ، تبسَّمَ وقال: لعلَّكَ سألتَ ذا النون أن يُعلِّمَكَ الاسمَ الأعظم؟ قال: نعم. قال الشيخ: علمَ ذو النون قلَّةَ صبرك، وامتحنَكَ بفأرةٍ، فسبحان الله إذا أنتَ لم تطقْ كتمانَ فأرةٍ، فكيف تطيقُ معرفةَ اسم الله الأعظم؟.

نقل أنّه كان في عهده رجلٌ شطَّارٌ عيَّارٌ اسمه عبد الواحد، وكان أبواه مَتْعوبَيْنِ عنه بسبب قبائح أعماله، ورذائل خصاله، فدخلَ يومًا في مجلس ميعادِ يوسف بن الحسين، وهو كان يتكلَّمُ بهذا الكلام، دعاهم بلطفِهِ كأنّه مُحتاجٌ إليهم، فسمعَ هذا الكلام، ومزَّقَ ثيابه، وشهق وخرجَ باكيًا، ودخل بعضَ المقابر، ورأى يوسفُ في الليلة الأُولى كأنَّ شخصًا يقول له: أَدرِكَ الشابَّ التائب. فكان يدورُ عليه إلى أن أدركَهُ اليوم الثالث في بعض المقابر، ففتح العين وقال: يا شيخ، أُرسِلْتَ إليَّ من ثلاثةِ أيام، واليوم تأتي إليَّ وتتفقَّدُ حالي!؟

(١) هو من قوله تعالى في سورة يوسف (٢٤): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ...﴾.

نقل أنه كان في مدينة نيسابور رجلٌ تاجر، وكان له جاريةٌ تركيَّةٌ جميلةٌ، قد اشتراها بألف دينار، وكان يُحبُّها ويعزُّها، وأراد أن يسافرَ إلى مدينةٍ أُخرى لقضاءِ بعض الحوائج، فذهبَ إلى الشيخ [أبي] عثمان الحيري رحمه الله، وعرضَ الحالَ عليه، وقال: لا أَعتمدُ على غيرِك، فأرجو منك أن تكونَ الجاريةُ في بيتك إلى أن أرجعَ. وتضرَّعَ كثيرًا، فأذنَ له الشيخُ في ذلك، وذهبَ بها التاجر إلى بيت الشيخ، وسافر، فاتَّفقَ أن وقعَ عليها نظرُ الشيخ مرَّةً بغير اختياره، فعشقَها.

وتَشوَّشَتْ حالُه، وتوزَّعَ باله، وتحيَّر في ذلك، فمضى إلى شيخه أبي حفص الحداد رحمه الله، وقصَّ له، فأمرَهُ أن يذهب إلى الشيخ يوسف بن الحسين(١)، فعزم [أبو] عثمانُ على الخروج، وسافر إلى مدينة الرَّي، فلمّا وافاها وسألَ عن مَسكنِ الشيخ، قيل: ماذا تُريدُ من ذلك الزنديقِ المُلحدِ المُباحي؟ والحالُ أنَّ عليك علامةَ الصلاح. وقد سمعَ مثلَ هذا عن جماعةٍ، فندمَ عن صحبته، ورجع إلى نيسابور، ودخلَ على الشيخ أبي حفص(٢)، فقال له الشيخ: رأيتَ يوسفَ بن الحسين؟ قال لا. قال: وما سببُ ذلك؟ قال: إني سمعتُ الناسَ يقولون في حقِّهِ كيتَ وكيت. قال: ارجع إليه. فرجع [أبو] عثمان رحمه الله إلى الريِّ ثانيًا، وسألَ الناسَ عن بيته، وما استمعَ إلى مَقالتهم، ولا التفتَ إليهم، وقال: لي شغلٌ إليه، ولا بدَّ منه. حتى أخبروه عن مسكنه، فلمّا وصلَ إليه وجدَ شيخًا ذا شيبةٍ، وعنده أمردُ صبيحُ الوجه، وبين يديه كوزٌ من كيزان الخمر وقدحٌ، وكان النورُ يتلألأُ على وجهه، فدخل عليه، وسلَّم، ثم شرعَ الشيخ يوسف في الكلمات، وكلّمَ بأشياء وراء طور العقل، حتى بقي أبو عثمان مُتحيِّرًا، فقال: يا شيخ، ما هذه الحالة مع هذه الكلمات، والهيئة الحسنة؟ فقال: يا أبا عثمان، أمّا الغلامُ الأمردُ فهو ابني أُعلِّمُه القرآن، وأما الكوزُ فكان مَرميًا في بعض المزابل، فأخذتُهُ وغسلتُهُ ونظّفته، ولم يكنْ لنا

(١) في (ب): فمضى إلى شيخه يوسف بن الحسين.

(٢) في (أ): الشيخ أبي جعفر.

كوزٌ، فنملأه من الماء، ونضعُهُ هنا، فمن يَشتهي الماء، يشرب منه. قال أبو عثمان: باللهِ يا شيخ، ولمَ تفعلُ كذا، ليقولَ الناس في حقِّكَ ما يقولون؟! قال الشيخ: لئلا يعتمدَ عليَّ أحدٌ في جاريةٍ(١). فعرف أبو عثمان حالَهُ، وقبَّل يده ورجله، وعلم أنَّ الشهوةَ لا تخلو عن آفةٍ.

أقول: ويعضدُهُ ما رُوي عن بعضِ السلف رضوان الله عليهم(٢): الشهوةُ آفةٌ، وكلٌّ يتولاَّها، والخمولُ نعمةٌ، وكلٌّ يتوقَّاها. والله أعلم.

نقل أنّه كان دائمَ السهر حتى ظهرَ في عينيه حمرةٌ ونقصانٌ لذلك، فسئل إبراهيمُ الخوّاص عن ذلك، قال: إنه إذا صلّى صلاة العشاء يقومُ قائمًا إلى الصبح، ولا يركعُ ولا يسجد، فسُئل يوسفُ عن سببِ قيامه إلى الصباح، قال: بعد أَنْ أُصلّي العشاء أقومْ لأُصلّي، فأتحيَّرُ في عظمةِ الله وجلاله وكبريائه حتى لا يبقى طاقةٌ، ولا أقدرُ على أن أقول: اللهُ أكبر، وأبقى على تلك الحالة إلى أن يطلع الصبح، فأُصلي حينئذ صلاة الصبح.

أقول: نعمَ ما أُنشد في هذا الحال:

قد تحيَّرتُ فيك خُذْ بيديَّ ... يا دليلاً لمن تحيَّرَ فيكا

والله أعلم.

ونقل أنه كتب الجنيد: [لا] أذاقَكَ اللهُ تعالى طعمَ نفسِك؛ فإنّك إن تذقْ هذا الطعمَ لا تُبصر شيئًا(٣).

ومن كلامه أنه قال: آفةُ الصوفية في صُحبة الصبيان، ومُعاشرة الأضداد، ومصاحبة النساء.

---

(١) في المطبوع المترجم صفحة ٦٠٠: جارية تركية.
(٢) مرّ القول صفحة (١٦٩) منسوبًا للإمام علي رضي الله عنه.
(٣) في (أ) و(ب): فإنك إن لم تذق. والخبر في الرسالة القشيرية صفحة ٢٢، ونصُّه: لا أذاقك الله طعم نفسك؛ فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرًا أبدًا.

من يعلمُ أنّ الله تعالى يراه وينظرُ إليه، كيف يستجري من مَهابته على أن يفعلَ شيئًا ـ أي عملاً ـ لا يكون لله!.

من ذكرَ الله تعالى واشتغل بذكره حقيقةً نسي ذكرَ غيرَه.

علامةُ الصادق شيئان: محبّةُ الخلق، وإخفاء الطاعة.

من غرقَ في بحرِ التجريد، يزدادُ كلَّ يومٍ عطشُه ولا يرتوي[1] أبدًا.

أعزُّ الأشياءِ في الدنيا إنّما هو الإخلاص.

كلّما أَسعى وأَجتهدُ في إزالةِ الرياءِ عن القلبِ، فإذا هو يظهرُ من جانبٍ آخرَ.

لأن أَلقى الله تعالى بأحمالٍ من المعاصي أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بالتصنُّعِ ـ أي بالرياء.

من علامةِ الزهدِ أن لا يطلبَ المقصودَ حتى يصيرَ موجودُهُ مفقودًا.

نقل أنه لما حضرته الوفاةُ، قال: إلهي، أنت تعلمُ أنّي نصحتُ الخلقَ قولاً، ونصحتُ النفسَ فعلاً، فاغفر لي جنايةَ النفسِ بوسيلة نصيحة الخلق.

فرآه بعضُ الصالحين في المنام، فقال: ما فعل اللهُ بك؟ قال: غفرَ لي. قال: بم؟ قال: بسبب أني ما خلطتُ الهزلَ بالجِدِّ أبدًا.

ربّنا آتنا من لدنك رحمةً، وهيِّئ لنا من أَمرنا رشدًا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) في الأصلين: عطشه ولا يظمأ أبدًا.